مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة اسلامية . ثقافية . تصدر سنويا

العدد الثالث
1986

- صدى الأدب العربي في الدعوة الإسلامية
- مخطوطات ليبية
- وصول الإسلام إلى ساحل مليبار
- التيارات الفلسفية وعلاقتها بالصراع على الحكم

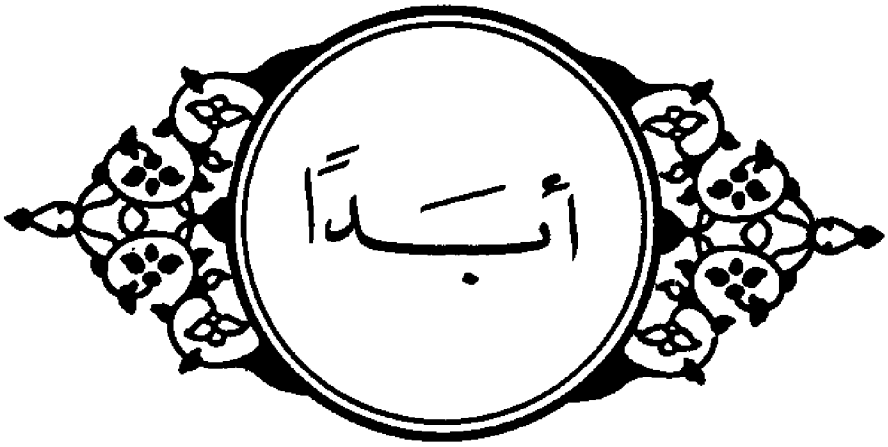

الأستاذ الصديق يعقوب

وردت هذه المادة في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعا . وفي هذه المواضع جميعها ترد بهذه الصيغة « أبداً » مجردة من « أل » ومن الاضافة . لكن المعاجم العربية وكتب المصطلحات في العلوم الاسلامية تورد هذه المادة في العديد من الصيغ والاشتقاقات مع ما يقابلها أو يشترك معها من مواد لغوية أخرى مثل : الزمان . الأزل . الأمد . الدهر . ومعظم استعمالات هذه المادة في مصطلحات العلوم الاسلامية يقترب من المعاني المثبتة لهذه المادة في المعاجم اللغوية مع بعض الاضافات والتقييدات التي يستلزمها استعمال هذه المادة في هذا المصطلح أو ذاك ولسان العرب مفتاحنا لولوج دائرة هذه المادة ومنه نعلم أن « الأبد : الدهر . والجمع : آباد وأبود . وفي حديث الحج قال سراقة بن مالك : أرأيت متعتنا هذه ألعامنا أم للأبد ؟ فقال : بل هي للأبد . وفي رواية : ألعامنا هذا أم لأبدٍ ؟ فقال : بل لأبدِ أبدٍ . وفي أخرى : بل لأبد الأبد . أي : هي لآخر الدهر . وأبد أبيد كقولهم : « دهر دهير . وقالوا في المثل : طال الأبد على لبد . يضرب ذلك لكل ما قدُم . والأبد : الدائم . والتأبيد : التخليد . والآبدة : الكلمة أو الفعلة الغريبة . ويقال للطير المقيمة بأرضٍ شتاءها وصيفها أوابد . من أبد بالمكان يأبد فهو آبد »[1] . والجوهري في صحاحه يورد عن هذه المادة ما أورده ابن منظور في اللسان ولا يزيد[2] .

(1) لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور . طبعة دار صادر بيروت .

(2) تاج اللغة وصحاح العربية لاسماعيل بن حماد الجوهري . تحقيق : احمد عبد الغفور عطار . طبعة دار الكتاب العربي . مصر 1956 .

وفي تعريفات الجرجاني نجد تحديدا أدق ، وتعريفا أجمع وأمنع وبيانا أكثر وضوحا لهذه المادة مع بيان ما يقابلها فالأبد هو : « استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب المستقبل كما أن الأزل هو : استمرار الوجود في أزمنة مقدرة غير متناهية في جانب الماضي . فالأبد مدة لا يتوهم انتهاؤها بالفكر والتأمل البتة والأبدي هو الشيء الذي لا نهاية له . والآبدي هو ما لا يكون منعدما ، والأزلي هو ما لا يكون مسبوقا بالعدم »[3] وقول صاحب التعريفات إن الأبد مدة لا يتوهم انهاؤها بالفكر والتأمل البتة . ـ فيما أرى ـ هو أضبط وأحسن ما قيل في تحديد مدلول هذا اللفظ . أما عن الموجودات ونسبة الموجودين الأزلي والأبدي إليها تبعا لطبيعة وجودها فإن صاحب التعريفات يورد تقسيما عقليا على النحو الآتي : « الموجودات من حيث الأبدية والأزلية أقسام ثلاثة لا رابع لها : فالموجود إما : أزلي وأبدي وهو الله سبحانه وتعالى . أو لا أزلي ولا أبدي وهو الدنيا أو أبدي غير أزلي وهو الآخرة ، وعكسه ـ يعني العكس المنطقي أي : أزلي غير أبدي ـ محال ؛ فإن ما ثبت قدمه امتنع عدمه . فالأزلي الذي لم يكن ليس ـ يعني أن الأزلي هو الذي لم يكن معدوما ـ والذي لم يكن ليس لا علة له في الوجود »[4] وصاحب التعريفات يضيف إلى الأزل والأبد عنصرا جديداً وثيق الصلة بهما ولو مبحث العلة . وقد يكون أخذ المعنى من الكندي وربما الصياغة أيضاً فالكندي يقول بهذا الصدد : « الأزلي الذي لم يكن ليس . وليس تحتاج في قوامه إلى غيره . والذي لا يحتاج في قوامه إلى غيره فلا علة له . وما لا علة له فدائم أبداً »[5] وهذا المبحث متصل اتصالا مباشراً برأي الكندي في العالم وهو كل ما سوى الله فهو يرى أنه حادث ويبرهن على ذلك ببرهان رياضي مشهور . فالأزلي إنما هو الله . ولا يكون أزليا إلا الأبدي فالله هو الأزلي الأبدي . وهذان الوصفان إنما هما من أجل تقريب الوجود المطلق إلى القول والأذهان . أما في التعبير القرآني عن هاتين الصفتين فنقرأ : ﴿هو الأول والآخر﴾[6] وهكذا يتقابل الأزل والأبد فيتلاشى الزمان ويثبت الوجود المطلق . هذا وقد أحسن الراغب الاصبهاني صنعاً حين أجاب

---

(3) التعريفات لعلي بن محمد الجرجاني . ومعد بيان للاصطلاحات الصوفية الواردة في كتاب الفتوحات لمحيي الدين بن عربي. طبعة مصطفى الحلبي . مصر 1357 هـ .

(4) المصدر السابق . وما بين الشرطتين خارج عن النص المنقول .

(5) رسائل الكندي . تحقيق الدكتور : محمد عبد الهادي أبو ريدة . طبعة دار الفكر العربي . 1950 .

(6) الآية 3 سورة الحديد .

على بعض استفسارات قد ترد حول بعض الاستعمالات لهذه المادة . مثل العلاقة بين الزمان والأبد . قال : « الأبد عبارة عن مدة الزمان الممتد الذي لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان . يقال : زمان كذا . ولا يقال : أبد كذا وكان حقه أن لا يثني ولا يجمع ؛ إذ لا يتصور حصول آخر يضم إليه فيثني به لكن قيل : آباد وذلك على حسب تخصيصه في بعض ما يتناوله كتخصيص اسم الجنس في بعضه ثم يثني ويجمع »[7] ومما هو جدير بالاشارة إليه أن هذه المواد : الأزل . الأبد . الزمان . لها في المصطلح الفلسفي استعمالات أخرى لاعتبارات خاصة حيث نجد بعض اصطلاحات هؤلاء لا تتقيد في كثير من مدلولاتها بالوضع اللغوي والاستعمال السائد[8] . وكذلك الشأن مع اصطلاحات المتصوفة . ومع غموض هذه الاصطلاحات ومعانيها المتداخلة ومراميها البعيدة لدى هؤلاء القوم وفي طليعتهم ابن عربي إلا أن صاحب كشاف اصطلاحات الفنون ينقل عن بعض الصوفية استعماله لهذه المادة « الأبد » في عبارات هي غاية في الوضوح والتحديد : « اعلم أن أبده تعالى عين أزله ، وأزله عين أبده ، لأنه عبارة عن انقطاع الطرفين الاضافيين عنه لينفرد بالبقاء لذاته . فَسُمِّيَ تعقل الاضافة الأزلية عنه ووجوده قبل تعقل الأولية أزلا وسمى انقطاع الاضافة الآخرية عنه وبقاؤه بعد تعقل الآخرية أبدا .

والأزل والأبد لله تعالى صفتان أظهرتهما الاضافة الزمانية لتعقل وجوب وجوده وإلا فلا أزل ولا أبد كان الله ولم يكن معه شيء »[9] . وفي الفتوحات المكية لابن عربي بحث لهذه المادة على طريقة المتصوفة[10] . وضمن مجموع رسائل ابن عربي أيضاً رسالة عنوانها : الأزل . وجه ابن عربي في مفتتحها اعتراضاته على الاستعمال العام الشائع لهذا اللفظ وكأنه يريد أن يفرض المفهوم الصوفي لهذا اللفظ فرضا[11] . والذي يظهر من استعمالات هذه المادة أن المقام وسياق الحديث له اعتباره في تحديد مدلول هذا اللفظ فالأبد بالنسبة لشخص ما أو لشيء ما هو أبد نسبي مقيد يختلف

(7) المفردات في غريب القرآن للراغب الاصبهاني . تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني . طبعة مصطفى الحلبي 1961 هـ .

(8) المعجم الفلسفي للدكتور جميل صليبا . . طبعة دار الكتاب اللبناني والمصري . 1978 هـ .

(9) كشاف اصطلاحات الفنون لمحمد علي الفاروقي التهانوي . تحقيق الدكتور لطفي بعد البديع ، ترجمة النصوص الفارسية الدكتور عبد النعيم محمد حسنين مراجعة الأستاذ أمين الخولي . طبعة وزارة الثقافة بمصر 1963 .

(10) الفتوحات المكية لمحيي الدين بن عربي . المجلد الأول . طبعة دار صادر بيروت . بدون تاريخ .

(11) رسائل ابن عربي . طبعة دار احياء التراث العربي . بيروت . 1948 م .

عن الأبد المطلق فالأبد مرتبط بالوجود إطلاقاً وتقييدا .

ويستعمل « أبدا » ظرف زمان لاستغراق النفي أو الاثبات في المستقبل واستمراره . وقد تدل القرينة على عدم استمرار النفي أو الاثبات في المستقبل كما في قوله تعالى على لسان قوم موسى : ﴿إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها﴾[12] وقوله تعالى : ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[13] ـ والأبد إذا قيد صار مدلوله قريبا من مدلول الأمد ـ فالأمد : الزمن والغاية ومن قوله تعالى : ﴿ فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾[14] أي طال عليهم الزمن والغاية : ﴿ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾[15] أي : أيهم اضبط لزمن بعثهم وغايته »[16] .

أخيراً نشير إلى أن من فطان هذه المادة مباحث أصول الدين في كتب الكلاميين[17] حيث نجد تحليلات بها عمق وطرافة وجدة وأصالة وإن كانت حصيلتها لا تخرج عن المعاني التي وردت سلفا مستقاة من كتب التراث .

---

(12) الأية 24 سورة المائدة .

(13) الأية 4 سورة الممتحنة .

(14) الأية 16 سورة الحديد .

(15) الأية 12 سورة الكهف .

(16) معجم ألفاظ القرآن الكريم : مجمع اللغة العربية . طبعة الهيئة المصرية للكتاب. مصر 1970 . وما بين الشرطتين خارج عن النص المنقول .

(17) يمكن الرجوع إلى كتاب الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين الجوني ، وكذلك كتاب : الارشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للمؤلف نفسه .ومن بين كتب الكلام المتأخرة يمكن الرجوع إلى كتاب المواقف للايجي الموقف الخامس المرصد الأول .